http://www.almadapaper.com - E-mamil: almada@almadapaper.com ◆ العدد(1437) السنة السادسة -الخميس (19) شباط 2008

فنــانــون في ذاكــــرة نــاظــم رمـزي

لم يكن الفنان الكبير ناظم رمـزي من المهتمين بنفسه فـي مجال تقديم ما لديه من ثروة وثائقية وفنية عن العراق والعراقيين،لأنه يخشى أن يفهم ذلك كنوع من تقديم الذات على الموضوع،فهو يكره حب الظهور الذي يلهث وراءه العديد من العاملين بالوسط الثقافي الذين هم أقل شأناً منه، مع انه يستحق تكريماً كبيراً يليق به كأحدمبدعينا العراقيين الكبار، لما قدمه للعراق والثقافة العراقية من خدمات لاتقدر بثمن.

فيصل لعيبي

لندن

محمود صبري في مرسمه

فائق حسن يرسم عند ضفاف دجلة

إسماعيل الشيخلي في مرسمه

لقد أصـدر كتابين عن العـراق، أظهر فيهما الفترات الأكثر تألقاً وحيوية في تاريخ العراق الحديث، وقدم لنا، من خلال صوره أماكن مختلفة ومتباعدة عديدة،، لم يصلها مصور قبله ولا بعده، مثل : اليزيدي في عزلته، الصابئي في طقوسه،الملة في كربلاء والنجف، رجال الدين من كل الطوائف والأديان، الباعة والكسبة والحرفيين، المرأة العراقية، عاملة البناء المكافحة التي تحمل الطابوق على رأسها لتعيل عائلتها، ابنة الهور وهي تقود مشحوفها شاقاً طريقه في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، الكردية وجمالها الفتّان، مقاهي المدن البعيدة أزقة هيت وبيوتها، ذات الطراز الفريد، البصرة وشناشيلها الجميلة، بغداد سرة العراق الذهبية، الجوامع ومراقد الأولياء والكنائس ومعابد الديانات المتنوعة في عراقنا الغني، كل العراق كان حاضراً بعدسته السحرية، وبكل المحبة التي يحملها ناظم رمزي لبلاده.

واليوم يقدم لنا كتابه الثالث والمهم جداً، ولكن بصمت وهدوء كعادته، خوف ان يوقض فينا ماكنا نطمح اليه، وهو كتاب عن الشخصيات العراقية المبدعة وخاصة الفنانين الذين واكب مسيرتهم كونه واحداً منهم وتتبع جولاتهم من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب: فائق حسن، جواد سليم، عيسى حنا، الرائد المنسي – الذي بلغ التسعين من عمره من دون ان ينتبه اليه أحد– محمود صبري، زيد صالح، خالد الجادر وغيرهم من قامات العراق الشامخة، إضافة الى موجز لسيرته الذاتية مستنداً الى الذاكرة وبعيداً عن مصادره ووثائقه وأفلامه التي أحرقها لصوص النظام السابق والذين يكملون اليوم ولكن تحت مسميات جديدة، تدمير ما يقع تحت أيديهم من الثراء العراقي وإنجازاته الخلاّقة.

سأتناول في هذه المقالة، واحدة من الصور التي يتضمنها كتابه الجديد، وهي صورة الفنان الرائد والكبير محمود صبري، بمناسبة بلوغه الثمانين من عمره، والذي يحتفل به الوسط الديموقراطي العراقي متأخراً عاماً كاملاً عن المناسبة، كالعادة، لأسباب ليس هذا مكانها.

الصورة تمثل محمود صبري وهو جالس في مرسمه وأمامه لوحته الشهيرة التي رسمها عام ١٩٥٦، تضامناً مع الشعب الجزائري الشقيق (لقد طلبت من احد مدراء الثقافة في أحدى الولايات الجزائرية بدعوة الفنان محمود الى الجزائر، بمناسبة اعتبار الجزائر عاصمة الثقافة العربية عام ٢٠٠٧، وهو عام بلوغ محمود عامه الثمانين، لكنه كما يبدو، لم يدرك أهمية ذلك، كعادة أكثرية مسؤولي الثقافة في عالمنا العربي المغلوب على أمره،مع أن هذا العمل يمكن إعتباره أول عمل تشكيلي عربي وربما أجنبي، يصور الثورة الجزائرية التي إنطلقت عام ١٩٥٤) اللوحة فيها من تأثيرات الفن المكسيكي ومن جورنيكا ما هو واضح، ولكن لمصلحة الفنان محمود وليس العكس، حيث تبرز هذه التأثيرات كيفية الإفادة من الآخر دون الوقوع في التقليد الساذج الذي نراه عادة في أعمال الكثير من الفنانين الذين يحاولون القيام بأعمال مماثلة.

محمود في عنفوانه واللوحة في كامل هيأتها والمرسم يظهر ذوق الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي (١٩٤٠-١٩٦٠).

الصورة تعطينا روح ذلك الزمان، روح الحداثة الواعية والمستندة الى إرث البلاد والثقافة الرافدينية العريقة، وتختصر فن محمود حيث الثورة هي مادتها الأساسية، والى جانبها لوحة العاملات العراقيات (الشرقاويات) وهن يحملن تعب السنين على الرؤوس والأكتاف، نساء غالباً ما أظهر معاناتهن الفنانان محمود صبري وناظم رمزي، كل بأدواته الخاصة القريبة الى نفسه.

في ذلك الزمن كان هذا الجيل ــــ جيل ناظم ومحمود – يؤسس لعالم خارج تواً من بحر الظلمات ومنطلقاً نحو عالم النور والحياة، كان مشروعهم آنذاك، يمثل خلاصة ما توصل اليه العقل العراقي المتنور والحديث، بعيداً عن تحديدات ووصايا الأموات التي تتحكم بالأحياء كما هو حال أيامنا هذه الصورة إذن ليست عابرة أو بمناسبة ما، إنما هي تأكيد لذلك الهم الذي ما نزال نحاول الوصول أليه حتى هذه الساعة.

فكم من الوقت قد راح هباءاً منذ تلك اللحظات التي التقط فيها الفنان رمزي هذه الصورة للفنان محمود وهو يمتطي كرسيه لإكمال ما بدأ به، وما وصلنا أليه اليوم؟

أفليس ذاك سوى هباء؟
حلم ودورة أسطوانة؟
إن كان هذا كل ما يبقى فأين هو العزاء؟
....
....
....
الشمس أجمل في بلادي من سواها، والظلام
– حتى الظلام– هناك اجمل، فهو يحتضن العراق..
واحسرتاه، متى أنام
فأحسّ أن على الوسادة
من ليلك الصيفي طلاً فيه عطرك ياعراق؟

ناظم رمزي، يوثق لنا الحياة، بكل تعقيداتها وتلاوينها، ومحمود صبري يسجل لنا المواقف والمشاعر ويقظة الضمير .

في الصورة نرى نساء محمود صبري، اللواتي يحملن عناء العراق على الرؤوس، بوجوههن المتعبة وصبرهن الأبدي الصامت، بآلامهن الدفينة وقهرهن المضاعف والمزدوج، حيث لايجدن أمامهن سوى نبات الصبّار الصحراوي، الذي يشبههن في المعانات والقوة، ونشاهد المناضلين الجزائريين وهم يواجهون قوات فرنسا والحلف الأطلسي عرايا إلا من الإيمان بعدالة قضيتهم، والفنان الواثق من إنتصار الشعوب، والمصور الفنان ناظم رمزي الذي سجل لنا هذه اللحظة الفريدة بامتياز، كلاهما أسهم في خلق تلك اللحظة النابضة بالأمل والثقة بكل ما هو نافع ومفيد وقادر على الإستمرار.

إذن ماذا حل بالعراقيين اليوم، الذين يتطوعون بضرب الصدور وجلد الظهور بالسلاسل وضرب الرؤوس بالقامات؟ وقتل بعضهم البعض بسبب الأسماء والطوائف أو الأديان؟

كيف يهجّرون بعضهم؟

من أين اتتهم هذه الثقافة الغريبة عليهم؟

عراق الخمسينيات، هو عراق التطلعات الناضجة والعقلانية الباهرة، عراق يخطط للمضي في ركب الحضارة والمدنية والنور والقيم الإنسانية النبيلة، عكس عراقنا الخالي الذي تتحكم فيه العصابات وقاطعي الطرق والقتلة واللصوص.

كان ناظم رمزي وهو يؤسس للطباعة الحديثة في العراق، الى جانب رفيقه الأقدم الفنان الرائد عيسى حنا – له العمر الطويل – يعرف جيداً مصاعب الطريق، لكنه بشخصيته المنفتحة والشعبية بامتياز ومع مواهبه المتعددة،يعرف أيضاً كيف يؤسس لخطواته الأولى مواقع قدم راسخة، كيف لا وهو محاط بعباقرة الثقافة العراقية من جميع الجهات وفي فترة إنبثاق ثلاثية المعجزة العراقية المعاصرة: الفن العراقي الحديث – الشعر العراقي الحديث والفكر التقدمي الحديث.

حسن ، محمد غني وناظم رمزي

أن مسيرة هذا الفنان تشكل سجلاً مشوقاً ليوميات مثقف عراقي من جيل النهضة الحدية في العراق، فهو مصور في فلم علياً وعصام ورساماً في الصحافة ومصمماً ومطوراً طرائق طباعية متنوعة ورساماً تجريبياً مهماً. لم أكن أعرف ناظم رمزي بشكل شخصي قبل قدومي الى بريطانيا، فقد كنت أسمع عنه سابقاً ولكني لم ألتقه مرة ونحن في العراق، كانت الكتب التي يطبعها والتصاميم والحروف الطباعية وخطوطه المبتكرة التي يبدعها، تثير فينا الدهشة والفضول، كما كان كرمه مع المبدعين حديث الجميع.

عندما زرته وبملحّة مني في مشغله الواقع بالقرب من محطة مترو الـ (With City)، كنت أتوقع أن أرى شخصاً متعالياً وربما مضطراً لإستقبالي تحت ملحتي وفضولي وقد أعددت نفسي لمثل هذا الاحتمال، لكنني وجدت رجلاً في منتهى البساطة والتواضع، وليس هذا فقط، بل أخذ يسألني عن رأيي في تصميمه لكتاب القرآن الذي كان منهمكاً به مما أحرجني آنذاك، أنا القادم لأخذ المشورة منه.

ورمزي فوق هذا وذاك صاحب نكته وطرائف عديدة فهو جليس محبوب والقعدة معه لاتعوّض.

ربما تسنح لي الفرص في القادم من الأيام للكتابة عن هذا الفنان المبدع والمتنوع، مع أنه يرفض حتى أخذ صورة له ويتذمر من طلبك له في إجراء لقاء معه، ومنذ تعرفي عليه وأنا ألح في إجراء حوار مطوّل معه لكنه يرفض ذلك بعناد لا أفهمه حقاً، ما يشكل عائقاً امام المتتبع لنشاطه والحريص على تقديمه الى مواطنيه من العراقيين.

في تجربة شاكر لعيبي

الـكـتـابـة الـشـعـريـة بـوصـفـهـا مـغـامـرة

ينحني الشاعر شاكر لعيبي على نوع من الاشتغال الشعري المفتوح على مناطق شائقة، مناطق تحرضه على المزيد من اكتشاف ما حوله أسرار المكان، الصورة، التفاصيل، اللغة، الكائن..هذا الاشتغال محمول على هاجس المغامرة الشعرية اساسا باعتبارها جزءاً عميقاً وقاراً في وعيه، وعيه الذي لايطمئن الى كآبته اليومية، وزيف ما يحوطه. اذ هو يرهن قصدية هذا الوعي في ارتكابٍ المزيد من المغامرة، مثلما يرهن اسئلته الى غواية سافرة، متوغلة، قلقلة تدفعه الى لجة التمرد، الى اصطخاب ما يفترضه من رؤى، تلك الرؤى التي تواجه الاحتمال دائماً.

علي حسن الفواز

هذا الانجذاب الى الرؤيوي، الى استمراء لعبة المكاشفة و(التغامر فيها وحولها) وربما النزوع الى الفضح هو مايدفعه الى ادراك ان حيوية المغامرة تكمن في الافراط في التجريب والقلق، ليس باتجاه المتاهة او اللاجدوى بقدر ماهو نزوع الانسان العارف، المبصر، المتسائل الى انتهاك سطوح الغفلة والعطالة والتراكم غير المجدي، اذ ما انفك الشاعر اصطناع موجهات سؤاله الشعري ليكون مجسا، تحسسا، اكتشافا، صدمة، تلك التي تبصر صيرورتها من خلال لعبة الوعي ذاته كما يقترحها الظاهراتيون، الوعي الذي يقف ازاء تاريخ طويل وصاخب ومضلل من الانزياحات، وحين يزعم الشاعر انه قد امتلك هذه الرغبة في التخارج عليه، فهذا يعني تراجعه الى داخل القصيدة، استغوار جوانيتها، تاملها والوقوف عند حريتها، تحديقها، مايصله الكشف بها الى مناطق لها فداحة ما تتركه الرؤيا، ولها قوة مايباشره الحضور من تصريح. هذا الانحياز الى القصيدة، هو الاكثر ايثارا في تحريضه على تأمل تركيبها الشعري الصياغي، معاينة وظيفة الشكل فيها، وبما يجعله اكثر تصريحا بـ(المفكر فيه) اشهارا، اذ تكون الكتابة الشعرية اعلانا بائنا، صناعة مصممة، قصدية ظاهراتية، يلج فيها عبر ما يستغرقه من وعي، وما يحفزه من ملال، وسأم، ونفور، وعبر مايؤلفه في وعيه من اشتغالات ينبغي ان تثير الكثير من الاسئلة.

في هذا السياق يبدو الشاعر شاكر لعيبي شاعرا مغامرا، لايمكن المرور على تجربته بصمت وسط خداع نقدي كبير، فيه الكثير من التنظير المغشوش، وفيه الكثير من الموت. يكشف عن نزوعه في التحقق الشعري عن قوة عميقة الأثر للشعرية، ويضع عبر لعبته في اماطة عري القصيدة الكثير من اكتشافاته لخطايا قمصانها القديمة، بدءا من قميص راحيل ويعقوب وانتهاءً بقميص السياب، هذه المعاينة ليست شكلية ظاهرة بالتمام، بقدر ما انها محاولة في استدراج نوع من(التشكل) الواعي الى القصيدة، التشكل الصوتي/الايقاعي، والتشكل البصري الخارق لاوهامنا في الانصات والذي يضعنا عند افق شهواني للانتظار. فهل كان شاكر لعيبي يدرك تماما ماتؤول اليه مغامرته؟ وهل ان كتابته تلك هي رثاء للقصيدة التقليدية(يصر الشاعر على تجاوزها) كما يقول والتي انهكتها العائلة تماما؟ وهل ان بحثه في الشكل هو بحث عن وظيفة اخرى لها في الوجود، وفي داخل النص الشعري، وربما محاولة في اجتراح لذة طاعنة لما يكتشفه، اذ لاتوجد كتابة من دون لذة؟ هذه الاسئلة بدت اكثر اثارة مع صدور كتابيه الشعريين (الحجر الصقيلي) و(عقيق مصري) بحدود ما اقترحته مغامرته من جدل عاصف في التجريب وحول ما اثارته من اسئلة ازاء سياق مختلف للكتابة التي اختارها الشاعر عبر مقترح كتابة قصيدة نثر بقافية، والتي وجدها بعضهم بانها اجتهاد او تنظير غائم وملتبس وغير دقيق في التعاطي مع اشكالات التجديد والتجريب في الكتابة الشعرية، وربما نظر اليها بعضهم على انها نوع من الايهام بالتجريب كما سماها سعدي يوسف. وضع الشاعر في مقدمة كتابه الشعري الاول (ملخص لنقود سريعة) احتفت واختلفت مع مغامرة الشاعر، استهلها بقول ادونيس(كل نثر يقفى أو يدخل به الوزن يقع في تصنيف السجع، والسجع عند العرب غير مستلطف إجمالاً) وطبعا هذا القول فيه الكثير من العمومية التي لم يكن متن الكتاب الشعري الاّجزءا من اشاراتها.

ولعل اكثر من نعتها بالمجانية والتسطيح والسذاجة كان الناقد حاتم الصكر الذي يبدو لي انه كان مغاليا في موقفه وفي رؤاه، اذ ان الكتاب لايمثل دعوة لالغاء غيره من انماط الكتابة، بقدر ما يحمل مقترحا للكتابة، بيانا لاستعادة الصوت الى القصيدة، فضلا عن ان صاحبها يملك رصيدا مهما في المنجز الواضح في الكتابة الشعرية وفي تجريباتها المتعددة.

الحديث عن قصيدة النثر يعني الحديث عن اشتغالاتها واجراءاتها، وليس الحديث عن تاريخها وتوصيفها المجرد، هذه القصيدة لاتملك بتقديري تعريفا محددا يضعها خاضعة الى مقايسات اواشتغالات واجراءات صارمة. وهذا(اللاتوصيف) يمكن ان يجعلها(بنية مفتوحة) للاضافة واحتمال القراءة والاختلاف، انها قصيدة تخلو من الوزن، لكنها لاتخلو تماما من التركيب البصري والايقاع الذي تقترحه بنية النص، بكل ما يقترحه الايقاع من تشكيلات بنائية بصرية ولغوية وحتى صرفية تضع الكتابة امام نقلات وتحويلات وظيفية، وعن تعيينات تتجاوز ما يقيد اسنادها كما يقول النحويون، او تشكيلات خارجية مفتوحة على وعد غير محدد من الصياغة.

هذه التشكيلات تدخل في سياق النظر الى القصيدة اولا، والى اليات صناعة الايقاع التحويلي الذي يمكن ان يصير فضاء للنص، يرتبط بالصوت والتكرار المعنوي واللغوي والحركة والتضاد مثلما يرتبط بفكرة القافية التي اقترحها شاكر لعيبي والتي لايمكن تسطيح فكرتها باعتبارها سجعا او انها لعبة مجردة....

واحسب ان ماعمد اليه شاكر لعيبي في الانحياز الى هذه المغامرة، لايمكن قراءته خارج سياق قراءة تجربة شاكر لعيبي الشعرية وتعدد اشتغالاتها البنائية والبصرية والمعرفية، تلك التجربة التي قوامها فاعلية شعرية امتدت لاكثر من ثلاثين عاما، تمور بمستويات متعددة لتلك المغامرة، وبكل ما تفترضه من حيوية وضخب واسئلة، فضلا عن نزوعها الحميم للانعتاق عن مهيمنة التاريخ الطويل لـ(الاثر) الذي ظل عالقا بكل ايقوناته كأنه الطبيعة الميتة.

قراءة شاكر لعيبي لايمكن ان تكون مجتزأة، ولايمكن مقاربتها في ضوء مجانسة لنصية تاريخية نعرف اشكالاتها واحكامها، او في ضوء قراءة(مقصودة بنوياها) تفتقر كثيرا لموجهات الوعي النظري بكل ما تقترحه اشكاليات قصيدة النثر وتشظياتها.

لان اباحة النظر عبر هذا الوعي وحريته في الكشف والتصرف، وفي التعرّف على تعدد اتجاهاته وطروحاته المفهومية والاجرائية، يعني اتاحة المجال للمخيلة العارفة ليس لانتاج المزيد من المعاني والافكارالخاضعة لاحكام التداول، بل لانتاج الاشكال المحرضة على الاختلاف، تلك الاشكال التي لا تعني موت غيرها، لانها وليدة الحرية، والحرية بطبيعتها مولدة..لذا تبدو الكتابة عند شاكر لعيبي هي كتابة حرية داخلية، كتابة (مزاج) واعي، مزاج يحاول اشهار ما يملك من رعب وضجر وسأم داخلي، او ربما هو ينزع الى مواجهات حادة مع المألوف والمتداول، الى اشتباكات ممكنة، تحيله بالضرورة الى نوع من التقاطعات التي تتجاوز ما هو عفوي الى ما هو مقصود بوعيه.

هذه القصدية تؤشر فاعلية تشكل الظواهر الصادمة والتي من شأنها ان تستجيب لخاصية الرؤية الشعرية التي تغري الشاعر بالكثير من(التخليق) والتجاوز، هذا التجاوز قد يبدو خروجا عن السياق، لكنه يبقى بتقديري واحد من علامات التعبير عن قوة التجربة وأثرها وعلامات ما تكشفه او تحدس به. شاكر لعيبي يحرضنا على القراءة، قراءة الكشف والاستعادة عبرها كما يقصدها ريفاتير، تلك التي تقترح لها موجهات باعثة دوما على المزيد من التخيل، المزيد من الاقتحام، المزيد من مواجهة رعب التاريخ برعب التجاوز، مثلما هي محاولة في اقتراح الكتابة المبصرة.

شاكر لعيبي

رحيل الروائي السوداني الطيب صالح صاحب موسم الهجرة الى الشمال

الطيب صالح

المدى / وكالات

توفي امس في لندن الروائي السوداني الكبير الطيب صالح عن عمر يناهز الثمانين عاما والطيب صالح احد اهم الروائيين العرب، اطلقت رواية (موسم الهجرة الى الشمال) شهرته في عالم الرواية.. وقد تناول النقاد العرب هذه الرواية بكثير من التحليل والاعجاب، فضلاً عن نجاحها لدى القراء العرب، وقد ترجمت الرواية وغيرها من اعماله العديدة الى الكثير من اللغات.

ولد الطيب صالح في قرية كرمكول شمالي السودان عام ١٩٢٩ ثم انتقل الى الخرطوم حيث التحق بالجامعة التي لم يتم دراسته فيها.

غادر السودان الى بريطانيا عام ١٩٥٢، وعمل في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية(بي بي سي) حيث شغل منصب مدير قسم الدراما.

عمل ايضا في وزارة الاعلام القطرية في الدوحة ثم تولى منصبا في مقر اليونيسكو في باريس.

تبوأ الطيب صالح مركزا مهما في خريطة الرواية العربية، خاصة بعد نشر روايته«موسم الهجرة الى الشمال» في بيروت عام ١٩٦٦ التي ساهم الناقد الراحل رجاء النقاش في تعريف القارئ العربي بها، لتصبح فيما بعد إحدى المعالم المهمة للرواية العربية المعاصرة.

وتعد«موسم الهجرة إلى الشمال» من الأعمال العربية الأولى التي تناولت لقاء الثقافات وتفاعلها، وصورة الآخر بعيون العربي والشرقي بعيون الآخر الذي ينظر اليه كشخص قادم من عالم رومانسي يسوده السحر ويكتنفه الغموض.

وكانت السلطات السودانية قد منعت تداول هذه الرواية في التسعينيات من القرن الماضي بحجة تضمنها مشاهد ذات طابع جنسي.

وصنفت الرواية كواحدة من أفضل مئة رواية في العالم، ونالت العديد من الجوائز.

ومن رواياته التي اكتسبت شهرة «عرس الزين» التي تنقل الى القارئ أجواء الريف السوداني وشخصياته ونوادره. وقد نقلت الى السينما برؤية المخرج الكويتي خالد الصديق.

كما كتب أيضا روايات «مريود» و « ضو البيت» و « دومة ود حامد».

وقد دعت بعض الجمعيات والمؤسسات الثقافية السودانية مؤخرا الى ترشيح الطيب صالح لجائزة نوبل للآداب.